الجزء الثالث المجلد السادس والاربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقا »

تموز «يوليو» سنة ١٩٧١ م جمادى الأولى سنة ١٣٩١ هـ

لغة دمشق

في عصر المماليك

طبعت وزارة الثقافة والارشاد القومي كتاب : إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى لمؤلفه محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، وقد تولى تحقيقه الاستاذ الكريم محمد أحمد دهمان وصدّره بمقدمة شافية وضح فيها آثار عصر المماليك في الشام ، مثل الاسواق والحمّامات والخانات والقيسريات والجوامع والمساجد والمدارس ، فجل هذه المباني انما هي من عصر المماليك .

واذا كان لا سبيل الى الاستقصاء في كل ما ذكره الاستاذ المحقق في مقدمته فلا ينبغي لنا أن نغفل عن الاشارة الى التوضيح الذي وضحه والتدقيق الذي دققه مما يدل على المجهود الذي استنفده في تحقيقاته وتعليقاته ، وفي جملتها تعيين مواقع بعض الاماكن في دمشق مما جاء ذكره في كتاب ابن طولون وتصحيح ما حرّف من أسمائها وبيان ما اندثر منها ، وعلى سبيل المثال نذكر : درب الشعارين في دمشق ، فأين هذا الدرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في يومنا هذا الا أن الاستاذ حفظه الله عيّن مكان هذا الدرب وامتداداته ، وقد تغيرت معالمه في عصرنا وقامت مقامه الدكاكين والمخازن ، وهكذا فعل في أكثر الاماكن المجهولة التي جاء ذكرها في كتاب ابن طولون .

وفضل آخر في هذه التحقيقات والتعليقات شرح معاني الالفاظ التي ولدها عصر المماليك ، من هذا القبيل ألفاظ : المهتار والطرخان والكفيات وكثير غيرها مما يطول إحصاؤه ، فالمهتار مثلا هو من يخدم مصالح الأمير ، والطرخان هو المتقاعد أو المحال على المعاش ، والكفيات هي آلات كان يطلق منها النار بواسطة البارود تحمل بالكف ، فلذلك سميت : الكفيات ، جمع كفيــة .

وقد بقيت ألفاظ كثيرة ذهبت عنا معانيها مثل الخنكار والدوادار وغيرهما ، وليست غايتنا في هذا المقال الوجيز المرور بما في كتاب إعــلام الورى بمن ولي نائباً من الاتراك بدمشق الشام الكبرى أو في كتــاب : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان من غرائب وعجائب مثل أمور العــزل والرشوة والمصادرة والمشاغبات ، أو مثل الاستقبالات والعادات فيها ، عادات الزينة والملابس والمراكب ، أو مثل ما كان يقع في دمشق من الفتن وما تجره هذه الفتن من خوف وذعر ، أو مثل قطع رؤوس بعض العرب والدروز ورفعها على الرماح وعرضها على الناس ، أو غير هذه الامور التي يعني بها رجال التاريخ ، فمن أراد الاطلاع عليها وعلى أشباهها فليرجع الى كتاب إعلام الورى ، والى كتاب مفاكهة الخلان ، فانه اذا فعل ذلك شاهد عصر المماليك في الشام ومصر بعينه ، ولمس آثاره بيده ، وسمع غرائبه وعجائبه بأذنه .

ليس هذا كله غايتنا ، وانما الذي نتوخاه انما هو التنبيه على يسير من مفردات ذلك العصر التي كانت شائعة على الالسن والاقلام .

دخل المماليك بلاد الشام ومصر وكان لهم فيها آثار كثيرة أشرنا الى بعضها ، آثار مادية تتعلق بالعمران ، وآثار معنوية تتصل باللغة ، أمــا الآثار المادية فبعضها لا يزال قائما ، ومثل هذه الآثار لا يذهب به الا الزلزال أو الحريق أو غير ذلك من حوادث الطبيعة ، وأما الآثار المعنوية المتصلة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

باللغة فقد ذهبت بذهاب المماليك الذين أدخلوهـا معهم ، لقـد عاشت المفردات التي ولدها ذلك العصر ما عاش سلطان المماليك ، ولما تقلص هذا السلطان عن بلاد الشام ومصر تقلص معه سلطان المفردات ، فلم يبق لها أثر ، فمن منا يستعمل في هذا العصر الفاظ الخاصكي وهو نوع من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا في خدمته صغارا وجعلهم حرسه الخاص ، وقد أفاض الاستاذ المحقق في تفسير هذه اللفظة، او من منا يستعمل : الأمير الشكاري أو البزدار، فالأمير الشكاري هو الذي يرجع اليه أمر الطيور والكلاب المعدّة للصيد ، فهو أمير الصيد ، والبزدار هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدة للصيد على يده ، هكذا كان تفسير الاستاذ محمد أحمد دهمان ، ومن هذا القبيل مآت من الألفاظ ، وقـد اضطر عصر المماليك الى استعمالها على أعجميتها ، فالبلاد لم تكن فيها مجامع لغة تضع لكل لفظ منها ما يقابله في اللغة الفصيحة ، والخلاصـة ماتت هذه الألفاظ بموت عصرها ، وهي كثيرة في الكتابين اللذين تقدمت الاشارة اليهما .

الا أنا لا نغادر عصر المماليك دون تدوين بعض ألفاظ من لغة ذلك العصر ، فمنها ما ليس له أثر في ألسن الناس يومنا هذا ، ومنها ما هـو غامض لا يفهم معناه ، ومنها ما هو مستفيض في لغة العامة وأصله فصيح، فهو يدخل في بقايا الفصاح ، فلا بد من ضرب الأمثال .

وردت في كتاب : إعلام الورى ، لفظة الطارمة على هذا الوجه : وهو الذي بنى البنيان فوق برج الطارمة ، وقال الاستاذ المحقق في تعليقاته : برج الطارمة هو أحد أبراج قلعة دمشق الغربية .

لقد مررت بهذه اللفظة في كتاب الأغاني ، وكانت شائعة في عصر بني العباس ، وهي لا تزال مستعملة في العراق ، وقد وجدتها في مذكرة نشرها أحد رجالات العراق في جريدة من جرائد مصر ، وفسّرها « دوزي » في معجمه ، وجاء تفسيرها من قبل محقق كتاب السلوك على هذا الوجه : الطارمة هنا بيت من خشب سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان ، وهي لفظة فارسية الأصل وجمعها : طارمات .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذه اللفظة اذا كانت مستعملة في العراق فانها غير مستعملة في دمشق ، ولا يفهم الناس معناها ، وكما وردت لفظة الطارمة فكذلك وردت لفظة المكارشة : ويترجل السلطان ويكارشه ، وقد علق الأستاذ المحقق على هذه اللفظة في حاشيته فقال : المكارشة هي أن يلتقي المسافر بالمسلّم عليه ، فيلصق كل منهما بطنه ببطن الآخر بحركات رشيقة ، ويقبل أحدهما الآخر ، وقد شاهدت اثنين من رجال الهند يلتقيان ويتكارشان ، وهذه العادة غير معروفة في بلادنا اليوم .

ونحن نحمد الله تعالى على أنها غير معروفة وما نظن أن في جهلها شيئا من الأسف ، فبعض الألفاظ تموت بموت دلالتها ، فالعادة التي تدل عليها المكارشة انما هي عادة ميتة في بلادنا ، فاللفظة التي تدل على هذه العادة ميتة بطبيعتها ، فاذا كانت المكارشة من الكرش فالكرش لفظة فصيحة ، فهي لكل مجتر بمنزلة المعدة للانسان ، ولها معان ثانية لا محل لذكرها في هذا المقام ، ويقال كرش الجلد كفرح تقبض والكرشاء العظيمة البطن ، وكرّش تكريشاً قطب وجهه وتكرشوا تجمعوا ، وتكرش وجهه تقبض وغير ذلك من معاني هذه المادة ومشتقاتها ، أما المكارشة فلم يأت ذكرها في القاموس المحيط ، ولا شك في أنها من غير الألفاظ التي أدخلها المماليك معهم ، فالظاهر أنها من لغة دمشق في عصر المماليك .

أما الالفاظ الغامضة التي لا نكاد نفهم معانيها في عصرنا هذا فهي كثيرة لا سبيل الى احصائها ، نكتفي منها بذكر : الشوطة : وحصل للناس شوطة ، أو وحصل لبعض التفاح الفاطمي والسكري شوطة من الهواء المتقدم ... فما هي الشوطة ، فهل لها صلة بمادة : شاط وشوّط ، يقال في اللغة الفصيحة : شوّط الصقيع النبت ، أحرقه ، وشاط ، يشيط ، احترق ، من هذا يتبين لنا ان « شوطة » التفاح الفاطمي والسكري معناها احتراقه من الصقيع ، ولكن مصدر شاط : شيط وشيطوطة وشياطة ، فالمادة يائية ، واذا سهل علينا فهم « شوطة » التفاح أي احتراقه من الصقيع ، فلم يسهل علينا فهم : وحصل للناس شوطة .

وما علينا بعد هذا اذا انتقلنا الى الفاظ فصيحة من لغة دمشق في عصر المماليك لا يزال استعمالها شائعا في عصرنا في لغة العامة ، من هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النحو قولنا : قرّط عليه ، جاء في كتاب إعلام الورى ما يلي : وقرطوا على وظائف البلد الدينية في احضار تمسكاتهم ، وقال الاستاذ المحقق في تفسير هذه اللفظة : قرطوا ، بتشديد الراء ، كلمة عامية بمعنى شددوا كثيرا .

هذه المادة فصيحة ومعنى قرّط عليه : أعطاه قليلا ، وهي شائعة في لغة العامة وأصلها كما قلنا فصيح ، فاذا الاهل لم يعطوا ابنهم ما يكفيه من المال فانا نقول : قرّطوا عليه ، فهي لفظة قوية ذات دلالةٍ خصبة ، كثيرا ما نستعملها في لغتنا العامة في الافصاح عن كل عطاء قليل ، يخالطه بعض البخـــل .

ومن هذا الشكل ما ورد في كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، في حوادث سنة أربع وثمانين وثمانمائة : ولم يلبس النائب الخلعة للقاضي نجم الدين لمعاكسته لاجل بلصة منه بطلب مبلغ ... وقد تكرر استعمال هذه اللفظة في مواطن كثيرة في كتاب ابن طولون ، والظاهر ان ذلك العصر كان عصر « البلص » .

يقال في اللغة : بلّصته من مالي تبليصا ، لم أدع عنده شيئاً ، وتبلص له : أراغه وأراده ، أما العامة في دمشق فانهم يقولون في لغتهم يومنا هذا : بلصه أي أخذ منه مالا إما من باب الحيلة ، واما من باب القوّة وغير ذلك من الابواب ، ويستعملون المصدر فيقولون : البلص ، واذا كان هذا المعنى لم يرد في اللغة الفصيحة على الوجه الذي أرادته العامة ، فهو في كل حال غير بعيد عن المعنى الفصيح : بلّصته من مالي لم أدع عنده شيئاً ، فليست هذه المادة بأقل قوة من أختها : قرط عليه .

بقيت ألفاظ ثانية استعملت في لغة دمشق في عصر المماليك وكـــاد استعمالها يبطل في عصرنا ، من هذا النوع لفظة : الملاقية ، والمقصود منها الرجال الذين يخرجون لملاقاة أحد من أهلهم عاد من سفرٍ ، أو الناس الذين يخرجون لملاقاة رجل من رجال الدولة قادم الى دمشق أو الى مصر ، وقد كانت هذه المادة شائعة في لغة دمشق العامة من ستين سنة أو أكثر ، وقد حلت محلها في هذا اليوم مادة : المستقبلين ، فاذا قدم رجل من رجـــال الدولة ذو شأن خطير فقد يخرج الناس أو الموظفون لاستقباله ، فهـــم المستقبلون فلم يعد للفظة الملاقية المقام الذي كان لها في القديم . وهكذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نجد أن اللغة عرضة للتبديل في كل زمن ، شأنها في ذلك شأن المخلوقات الحية في عالم الطبيعة .

إن ما ذكرته من طبقة الالفاظ التي تقدمت الاشارة اليها انما هو غيض من فيض ، فما أكثر ورودها في كتاب إعلام الورى وفي كتاب مفاكهة الخلان ، فهي تحتاج الى تتبع أوفر ، واهتمام أبلغ ، لمعرفة ما مات من هذه الالفاظ وما زال حيا يشيع على ألسن الناس ، خاصتهم وعامتهم ، وما ذكرت ما ذكرت الا على سبيل الاستشهاد ، فلم أقصد من العنوان : لغة دمشق في عصر المماليك تتبع هذه اللغة من حيث قوتها أو ضعفها ، ولا رميت الى معرفة خصائصها على وجه عام ، وانما الذي قصدته انما هو الاستشهاد على نحو ما قلت بطائفة من الالفاظ ، قسم منها مات ، وقسم منها غير مفهوم ، وقسم لا يزال شائعاً مع قليل أو كثير من التبديل وله أصل فصيح ، أما الالفاظ الاعجمية التي أدخلها المماليك معهم لما دخلوا مصر والشام فانها قد ماتت بموت سلطانهم ، فلم يبق لالفاظ : الطبخلانة والزردخانة والجامكية وغيرها مما يطول ذكره ظل من الحياة في لغتنا .

« شفيق جبري »

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net